{وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}

الانفتاح والتنوع والتعدد

عبد الرحمان السالمي *

تبرز مسألة الاختلاف والتعدد باعتبارها أهم المسائل في العالم اليوم، ويخوض العالم الإسلامي مخاضاً عسيراً في اتجاهين متناقضين: فهو يريد ذاتية واستقلالية وانفصاماً عن العالم أحياناً، وفي الوقت نفسه يعجز عن تحقيق وحدة نفسه باسم الأمة إثباتاً للهوية والخصوصية والأهلية والتعامل مع العالم تعامُل الندّ للندّ. والواقع أنّ الانفصام أو التضامّ، ينطلقان من مفهومين مخطئين، ولذا فنحن نخاف من الانفتاح على العالم خشية الاندماج والذوبان – ونُظهر السعي إلى الوحدة والتوحد، في حين نخلط بين الوحدة الثقافية والأخرى الاقتصادية أو السياسية.

ويُشعرنا المنهج القرآنيُّ أنّ المسألة في الفهم والمفهوم، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الناس أمة واحدة أو على قلب رجلٍ واحد (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) فلا شيء تقريباً إلا ويتناوله الاختلاف والتعدد باستثناء أصل الخلق والخلقة: (خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء) فحتى الأصل الواحد والمقصود به التساوي في القيمة الإنسانية، يكون منبعاً للتكاثر الذي تختلف أفراده وجماعاته في كثير من الأمور (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل...) فهناك إذن الذكورة والأنوثة، والألسنة والألوان، والتنظيمات الاجتماعية المختلفة، والمصالح المتباينة، ولذلك يكون من الطبيعي وقد ظهر هذا الاختلاف الكبير باعتباره سنة من سنن الله في خلقه، أن لا يكون هناك أمل أو سعي لإلغائه (ولا يزالون مختلفين) وقد دارت الصراعات في أكثر عقود القرن العشرين من ضمن محاولات إلغاء الاختلاف والدمج الكامل، في الدول الوطنية والقومية، فأدت تلك الإلغاءات إلى حروب عالمية، ونزاعات كبرى، ما يزال بعضها مستمراً حتى اليوم.

لكن من ناحية أخرى؛ فإن صراعات العقدين الأخيرين تتخذ سمات معاكسة، أي أنّ الاختلاف والتعدد يستشريان إلى حدود الطموح لإلغاء جماعات كبيرة، ودول كبرى، وهنا يتدخل المنهج القرآني الذي أقر الاختلاف وجعله من سنن الاجتماع البشري، ليدعو للسبيل الوسط بين إلغاء الاختلاف أو المضي به إلى ما لا نهاية تشرذماً وعبثية: (يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) فالتعارف ليس المقصود به إلغاء الاختلاف ولا تسعيره، بل الوصول بالمعرفة والحوار إلى فهم وتفهم كل من الطرفين للآخر، وقد يستقوى فردٌ على فرد نتيجة المعرفة بوجود ضعفه مثلاً، ولذلك تقوم الجماعات والشعوب والقبائل والدول لتُوازنَ القوة والضعف وتجعل كلاً من الطرفين يفكر في فوائد التوافق والتعايش والمسالمة على أساس الاختلاف والتساوي والندية.

وقد يكون ذلك معنى قوله تعالى في تمام الآية: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)، وقوله في تمام الآية الأخرى، آية التعارف: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالرّحمة والتقوى ليستا في إلغاء الاختلاف، رغم أن الإيثار مستَحَبٌّ، بل في التزام نهج الأخلاق في التعارف والاعتراف، أي أن على كل واحد منا أن يتجاهل شيئاً من اختلافه، من أجل أن تستقيم الحياة وعيشُها المشترك، ولا يفقد هو في الوقت نفسه فرديته أو مصالحه، فالله -سبحانه وتعالى- من أجل ذلك خلق الخلق، أي أنه خلقهم للاختلاف والتراحم والتقوى في الوقت نفسه، وهذه الأمور لا يمكن أن تتحقق إلا في التعامل المتأسس على التعارف.

وقد حدد -سبحانه وتعالى- غايتين من وراء الاختلاف الإنساني، (ليبلوكم أيّكم أحسن عملا) أي أكفأ في القيام بمهامّ الاستخلاف من جهة، و(فاستبقوا الخيرات) أي الأكثر عملاً من أجل خير البشرية وتقدمها، فالاختلاف مقصود له سبحانه، ووسيلة ضبطه وإدارته بالتعارف، وما الحروب غير تعبير عن تفاقم الاختلاف، وتجاهل التعارف؛ في حين تنشب حروب أخرى حتى اليوم بسبب محاولات الهيمنة والاستيلاء والطموح للتذويب وإلغاء الاختلاف، أي إلغاء الذاتيات والهويات والانتماءات الصغرى أو الفرعية.

لقد مضى علينا زمانٌ كنا نعتبر فيه أن كل اختلاف شر وظلم وخطأ فاضح، بينما فرّق المسلمون الأوائل بين الأساسيات التي لا يجوز الاختلاف فيها، والفرعيات التي لا يصلح فيها إلغاء الاختلاف والتعدد، ولذلك فقد سعوا للتقارب في أصول الدّين، وفي العلاقة مع أهل الكتاب، مثلاً، كما نص عليه القرآن. أما في الفروع التي تتطلب النظر والمراجعة وتقليب المصالح، فقد تركوا فيها العنان للاجتهاد والاختلاف والتعدد، ومن ضمن ما اعتبروه فروعاً لتعلقه بالمصالح: الشأن السياسي، الذي أقاموه على الاختيار والشورى والاختلاف والتعدد، وهي أمور كلها ضرورية للتداول وللسلمية في توسيد الأمر لأهله. فكما سبق القول، شهدت العصور الوسطى الإسلامية تصارعاً بين منهجي التعارف والإلغاء، أما في الأزمنة الحديثة فقد ساد منهج الإلغاء تحت اسم الدمج والتوحيد، وما نتج عن ذلك غير التناكر بدلاً من التعارف، والتباعد بدلاً من التقارب بين إخوة وأشقاء متقاربين في الأصل، فقد كان هناك نزوعان يتنافسان تارة ويتضافران طوراً: نزوع الاستيلاء باسم التوحيد، والنزوع الإثني المستند إلى أسطورة الأصل التاريخي الواحد أو المُدْمَج.

وما عُدْنا إلى نهج التعارف بعد تضاؤل خطط نهج الإلغاء والدمج، بل جاءتنا العولمة التي تذرُّر الاختلافات تحت اسم إعطاء الحق والاعتراف والندّية. والاختلاف لا يمكن أن يكون بدون غاية غير الهوية الصغرى المنغلقة، كما لا يمكن أن يكون بقصد الاستئثار والسيطرة تحت اسم الحق الوطني أو القومي. ونحن نواجه اليوم قضيتين رئيسيتين الإصلاح والنمو، وهاتان القضيتان لا يصلح لهما غير نهج التعارف الذي ذكره القرآن الكريم باعتباره تعرفاً على الاختلاف واعترافاً به وسعياً للجوامع وانفتاحاً على الآخر القريب والبعيد، وصنعاً للمستقبل المشترك بالاعتماد المتبادل، والحوار والمعرفة الأخلاقية الصبورة والمستنيرة.

في الاختلاف حرية للفرد وذاتية. وفي العيش الاجتماعي والاشتراك العالمي مسؤولية وتحقيقٌ للمصالح التي لا يمكنُ للأفراد والجماعات الصغرى الانفراد بتحقيقها. ومنهج التعارف هو المنهجُ الإلهيُّ لضمّ هاتين الناحيتين من نواحي الطبيعة البشرية معاً.

****

*) رئيس تحرير المجلة.